النازحان

فيصل عبدالرحيم - السودان

.. كعيني سمكة ميتة.. كانت عيناه.. تطلان عليه من خلف مرآة دولاب الملابس القائم ملاصقا لأحد أضلاع الغرفة المتساوية الزوايا.. صفحة المرآة ووجه ماء النيل.. وصورته المنعكسة تنداح متداخلة بينهما.. فلا يدري على وجه الدقة.. أيقف على شاطئ النيل.. أم يقف أمام هذه المرآة الباردة!!..

.. يهرب بعينيه السمكيتين بعيدا.. شجرة نخيل.. انغرست بين مسامات طمي النيل.. وتجذرت عميقا في باطن الأرض.. ثم تنامت متباسقة.. حتى أثمرت رطبا جنيا.. على حين غرة.. ثمة خطر داهم.. ريح عاصفة.. تجتث الشجرة من جذورها.. تنحسر أشعة الشمس الواهنة.. وهي تطوي آخر نفس بين أتون وهجها الآخذ في الخمود.. فلا يجد مناصا من الانسحاب مندحرا.. أمام جيوش العتمة الزاحفة خببا!!..

.. من يضيء العتمة؟

.. كان يوما مشهودا.. المصادفة أنبتته.. رغم بوار التربة وجفافها.. كانا كفرسي رهان.. منذ جلسا على (برش الخلوة) وخطا أول حروف الأبجدية على اللوح (الأردواز) ورددا معاً مع بقية (حيران) الخلوة.. تلقينا لفواتح المعرفة..

.. التنافس.. الغلبة.. النكوص.. حلاوة الانتصار.. مرارة الهزيمة.. ثم فيما بعد الود الخالص والرفقة الحميمة.. واقتران الاسمين وتلازمهما.. من يعرف (نصار) يتحتم عليه أن تتوثق صلته بـ (خليفة).. لكن موجة الكساد والبطالة.. وما أعقبهما من تضخم.. أورثا الناس عنتا.. وضيقا في التنفس وذات اليد على السواء.. مما عجل بنزوح جماعي من مسقط الرأس إلى المراكز المتاخمة والمدن الكبيرة.. إلا أن المقام.. لم يطب للعديد من النازحين كانوا يجولون بين الأزقة والحواري كالقطط الضالة.. والأفضل وضعا.. من ذوي المهارة والمهن.. غزاهم شعور كاسح بأنهم ملفوظون من هذا المجتمع الجديد

كالأجسام الغريبة.. فهداهم البعض إلى الوقوف أمام بوابة مكتب العمل ومداخل السفارات.. وبعد جهاد ومجالدة.. حظيت نسبة منهم بالفوز بما حسبوا أنه سيحفظ لهم ماء الوجه.. فمضوا لا يلوون على شيء.. تسبقهم أحلامهم.. مخلفة وراءهم مذاق الخيبة ومرارة الإحباط!!..

.. هكذا كان حال (نصار) وهو يركب على متن الطائر الميمون محلقا فوق السحاب.. وربما لم يختلف حال (خليفة) كثيرا عن حال صفيه.. غير أن كليهما قد هبطا في مدينة غير التي استقطبت الآخر..

* * *

«.. أزاح (نصار) خياله المنعكس على صفحة المرآة بعينيه السمكيتين.. وبصره ينصرف إلى أمر آخر يشغله!!..

.. طفق يعيد نسيج أحلامه.. كم كان ساذجا حينما وطئت أقدامه أرض هذه المدينة وبنى على سواحلها قصورا من زجاج سرعان ما انهارت متشظية تحت ضغط ثقل أول صدمة تلقاها.. بينما كان يقف على قارعة الطريق حائرا (هنا مفترق الطرق.. العودة خالي الوفاض مخزية.. والبقاء قاس)!!..

.. لحظتها.. حسب أنه لن يصمد طويلا.. لكنه علل النفس بأنها ربما تكون فترة موقوتة غير قابلة للتمديد.. إلا أن السنين توالت متراكمة وناء بها كاهله حتى كاد يسقط من فرط ثقلها.. ثمة خيوط خفية.. كانت تشده.. وتلف حول عنقه أنشوطة..

-أهو ضرب جديد من الخنوع؟

مرة أخرى تجتذبه المرآة فينقاد مسحوبا.. آملا في كسر محارة العزلة.. عله يعثر على من يشاركه في الخروج من هذه الدائرة المحكمة الإغلاق.. وعند صدر دولاب الملابس يصطدم بعيون سمكية تبسط هيمنتها منداحة بسعة مساحة المرآة.. صدى الصوت يصل أذنيه ممزقا كأنه يأتي من عالم الأموات..

- أنت من صنع هذا الخنوع.. واستجاب له..

- والأنشوطة التي تلتف حول عنقي؟!

- من نسيج خنوعك..!!

يلغم حجرا.. فكيف عن محاولة الخروج من هذه العزلة الموحشة.. موليا ظهره إلى من ظنه قرينا له يشاطره هذه المحنة.. يعود مرة أخرى إلى الحال الأولى.. وشعور بالنفي يجترحه فيقعي مقرفصا ويداه تلتفان حول ركبتيه.. بينما هامته تسقط منكفئة.. ولسان حاله يصرخ كظيما: ما أبشع هذا العالم! غربة وكربة!!..

* * *

أمضى (خليفة) الشهور الأولى مفتونا بكل ما يدور حوله.. كان كل شيء يبدو جديدا.. لعل الجدة أسرته منذ الوهلة الأولى وجعلته مرهونا بها.. يدور حول فلكها.. ولا يجرؤ على الانفلات من إسارها.. لكن دبيب السأم مع كرور دورات الفصول.. أخذ يغزل نسيجه اللزج حاجبا بتداخله المتشابك في تلوي طزاجة المرئيات وعذريتها.. ولم يلبث أن أصبح كل شيء أمام ناظريه باهتاً.. فقد شاخ الطفل في داخله.. ووئدت ينابيع الدهشة في عينيه فضاق ذرعا ببهاتة الأيام.. وتكرار نسخها الكربونية!!..

أكان في مكنته الانعتاق؟

.... كيف؟.. ودولاب الحياة هناك.. من يمد شرايينه بالإنباض؟!.. ثمة آصرة رحمية تجذرت في أعماق أسلافه الأقدمين.. وانتقلت إليه عن طريق (الجينات) وهيمنت على الوجدان.. لتتمثل سلوكا.. يستحيل الإقلاع عنه!!؟..

.. (كالجرح والضمادة) بهذا التوصيف اختزل حياته.. كان جرحا نازفا.. وفي ذات الوقت ضمادة لجراح الأقربين.. أحيانا.. كان يترسخ لديه هذا الضرب من القناعات فيستسلم موهوما بالرضا.. ولكن هاجس السؤال يدنفه فيظل مسهدا يحصي النجوم.. ويرصد مساراتها.. ولا يجد لهذا الأسر فكاكا!!!.

-أهو وهم الرضا بالاستسلام.. أم هو ضرب جديد من الخنوع!!؟

.... يزيح صورة السماء عن عينيه.. ولكن عنقه يتدلى

معلقا في فضاء هائل من الفراغ..

تنحسر أستار العتمة.. ويتخافت وهج النجوم وتأخذ في التباعد.. حتى تبدو كابية ومتناهية الصغر.. لتختفي تماما عند نقطة التلاشي مع البدايات الأولى، الإرهاصات، ببزوغ الفجر..

.. يتهاوى رأسه المعلق متساقطا.. فيدفنه بين ركبتيه المحاطتين بذراعيه إحاطة كاملة وصراخه المكتوم.. يرتج له صدره ارتجاجا.. بينما الكلمات تخرج من شفتيه ممزقة.. (أهي عقوبة على جرم لم أرتكبه؟!!)

* * *

يوم اللقاء.. كان وليد المصادفة.. كل منهما كان لا يذكر.. الآخر.. ربما البعد الذي امتد سنين ومسافات.. طمس صورة كل منهما في ذهن الآخر فأصبح أحدهما لا يذكر الآخر إلا إذا ارتبطت تلك الذكرى بموقف له علاقة بمسقط الرأس.. كأن يكون سباقا في السباحة.. من يصل إلى أبعد نقطة من الشاطئ أو من يظل تحت الماء أطول مدة ممكنة.. أو أيهما يجرؤ على الغوص في أعمق منطقة في النيل؟! وثمة مجالات أخرى لقياس الأفضلية بينهما.. من أكثرها هوى في النفس تسلق أشجار النخيل الباسقة.. من يكون في مكنته الصعود إلى أطول نخلة بالقرية مع إسقاط أكبر (سبيطة) من التمر الرطب من فصيلة القنديلة.

كل منهما كان يمتلئ حماسة.. ويضج بالعنفوان وهو ينافس الآخر ليهزمه.. ويعلن نصره على رؤوس الأشهاد.. لكن نهايات الأشواط كانت دائما تسفر عن المماثلة والتعادل في أغلب المنافسات.. وحينما يفضل (خليفة) نصارا.. أو يفوق نصار خليفة.. في ضرب ما من ضروب السباق.. يتيقن الآخرون أن المنتصر سيقيم القرية ولن يقعدها.. إلا إذا أحرز الآخر انتصارا في جولة أخرى من جولات اعتراكهما.. ولكن يحدث أحيانا لدهشة أهل القرية أن يقبل الغالب على المغلوب بروح رياضية فائقة هاشا باشا لا يشوب صفوه كدر.. فيشد يده في ود بالغ!!؟..

.. من كان يصدق.. عندئذ.. إذا قيل: إن (نصارا وخليفة) سيتركان القرية.. فما بالك إذا قيل: إنهما سينزحان نزوحا دون أن يكون ثمة أمل في عودتهما!!؟

- ألا ترى أن الدنيا تقف على رأسها؟!!

همس أحد شيوخ القرية حينما أشرقت عليها شمس يوم جديد ولم يعثر لهما على أثر..

- بلى.. لعل مسارات دورات الفصول اعتورها خلل.

- الخلل أصاب النفوس!!؟

انقضى عقدان من الزمان.. ولا زال صدى هذا الحوار المقتضب يرن بين أهل هذه القرية التي هجرها معظم شبابها.. وغزا الشحوب جريد نخيلها وتيبست جذوعها.. فبدت من بعيد كأنها شواهد قبور!!؟..

* * *

لحظة اللقاء فجرت نهرا من الأسى.. أعاد ما انقطع من الوصل.. فكانا المنبع والمصب في آن..

في البدء كان حوارا صامتا.. أجرته الأصابع التي تشابكت في توتر محموم والصدور التي التحمت تحاضنا.. ثم وقفا ساكنين كأنهما لسان من دم لا يجد الشفتين.. ولكن لم يلبث اندفاع تيار الدم أن احتفر له مخرجا.. فتدفق الحوار معيدا الوجه القديم لعالمهما الأثير ولكن مذاق الغربة.. طغى على حلاوة الذكرى.. فتشبثا بالتواصل على مضض.. ولكن سرعان ما تعسر تدفق الحوار.. واعتوره التمزق.. فبدا لكليهما أن ثمة حاجزا يتعامد بينهما.. حاجبا نضارة الماضي وحيويته.. إلا أن رغبتهما العارمة في كسر هذا الحاجز خففت شيئا ما من خاصيته على الفصل بينهما فصلا تماما.. فأخذ كل منهما يسعى لفتح مداخل للتواصل رغم قناعتهما اليقينية بعبثية هذا المسعى.. في الداخل كان يمور هاجس العودة.. وجاء هذا اللقاء الذي أنبتته المصادفة ليفجر كوامن الحنين الجارف إلى العودة لرحم الأرض.. لكن ثمة خيوط خفية.. لا تني تشدهما شدا.. لا يدانيه إلا شد الأصفاد.. سارا مترافقين ومتباعدين في آن.. حتى وصلا إلى نقطة فارقة.. فعرج كل منهما إلى طريق مختلف.. دون أن يقولا شيئا. ■